البـــئر الغربي

obeikandl.com

حقوق الطبع محفوظة
١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

ق
غسا غسان العلي
البئر الغربي / غسان العلي .ـ عمان: (د.ن)، ١٩٩٢.
(٧٠)ص
ر.أ (١٩٩٢/٦/٣٩٢)
١ـ القصة العربية أ ـ العنوان
(تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية)

دار البشير
ص.ب (١٨٢٠٧٧) / (١٨٣٩٨٢)
هاتف: (٦٥٩٨٩١) / (٦٥٩٨٩٢)
فاكس: (٦٥٩٨٩٣) / تلكس (٢٣٧٠٨) بشير
مركز جوهرة القدس التجاري / العبدلي
عمان ـ الأردن

Dar Al-bashir
For Publishing & Distribution
Tel: (659891) / (659892)
Fax: (659893) / Tlx. (23708) Bashir
P.O.Box. (182077) / (183982)
Jerusalem Jewel Trade center Al-Abdali
Amman - Jordan

obeikandl.com

البئر الغربي

الدكتور
عنان العلي

دار البشير

obeikandl.com

obeikandl.com

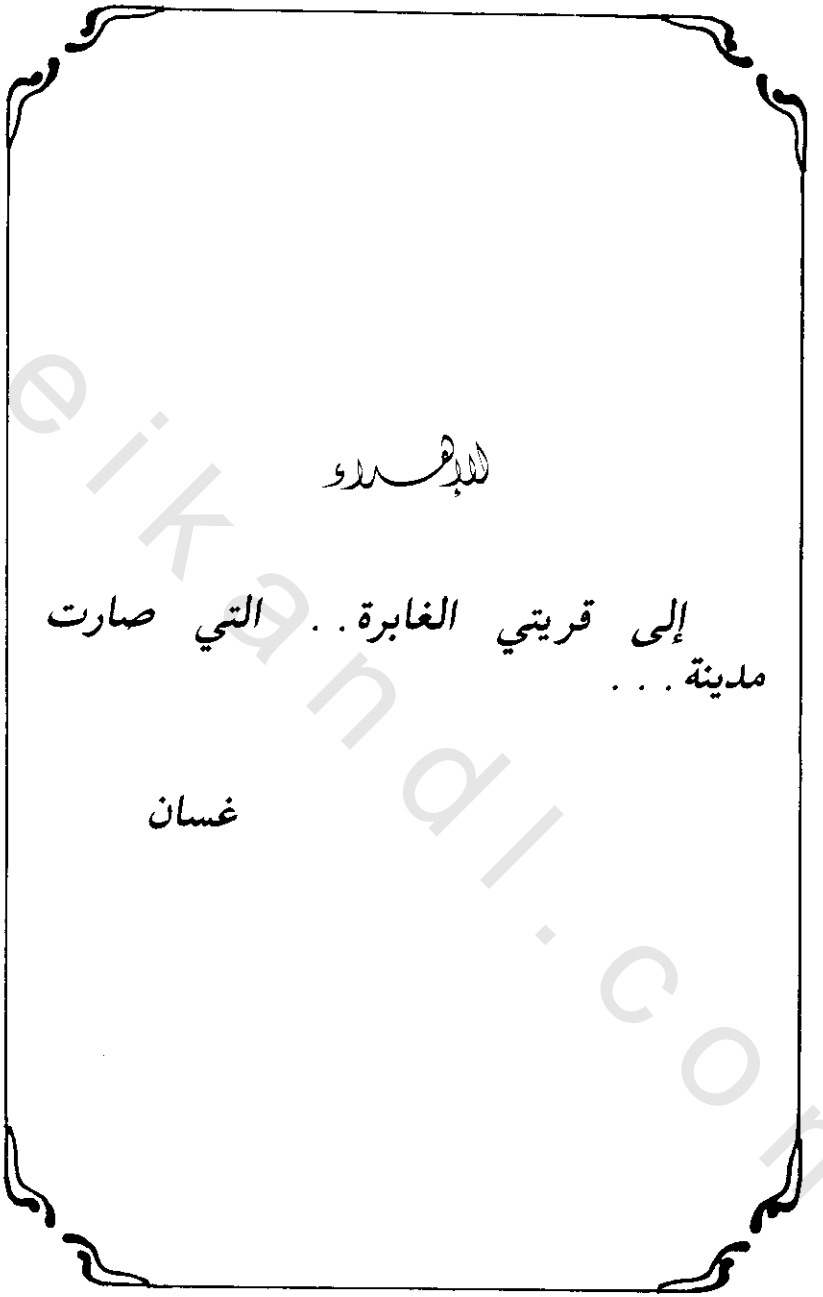

الإهداء

إلى قريتي الغابرة.. التي صارت مدينة...

غسان

obeikandl.com

obeikandl.com

مجرد سرد لتاريخ شخصي
ينبعث من الدخان . . .
ليتلاشى في اللهيب . . .
مجرد صور جافة تتساقط
من ذاكرة سرابية . . .
عالقة في متاهة الصدى
حيث الموت والحياة . . .
الكل . . . ولا أحد .

obeikandl.com

الرحيل ـ العودة

obeikandl.com

obeikandl.com

الرحيل ـ العودة

هأنذا أعود إلى الشرق، إلى الأرض الأم بعد اغتراب طويل. عبثاً أحاول أن أحصره بمقياس الزمن العام، وكأن هذه الفترة من حياتي تفوق تحديدها بعدد السنين والأيام. أعود بعد اغتراب استمر خمسون سنة وقد اتخذت قراري هذا بكامل إرادتي الحرة مخلّفاً ورائي نصف قرن من الزمن، من الحياة الناشطة المليئة بالعمل والجد والكفاح. وفي لحظة واحدة أقرر الرحيل، العودة، متنازلاً عن كل شيء، عن الروابط الاجتماعية التي أقمتها هناك، النجاحات التي حققتها والذكريات التي رسّبتها السنون المتلاحقة بضراوة في سجّل العمر.

أغادر المنزل الفخم ذي الشرفات البيضاء الذي شيّدته على شاطىء البحر في أكثر دول العالم تطوراً وحضارة. أرحل عن شوارع المدينة المليئة بدور الاوبرا الهامة ذات الهندسة المعمارية الفائقة. أترك ورائي المتاحف وبيوت اللهو، الحانات، الحدائق الرائعة، المحالّ الرفيعة المنمقة بآخر ما توصلت إليه يد الإنسان من حضارة وفن. صحيح أن ليس لي ثمّة زوجة ولا ولد قد يشدني إلى ذلك العالم لكن صدقوني أنني أعود إلى وطني لا أكنُّ أيّة ذكرى قد تثقل كاهلي أو تدفعني للتغرب من جديد ولا أحمل في رأسي سوى رقم حساب رصيدي في أحد البنوك الغربية، كل ما

جمعت من ثروة، أو بالأحـرى كل ما صنعتـه في حياتي. أمـا الهاجس الذي دفعني فيما مضى للسفر فلم يكن المال، بل أنني غادرت للدراسة انتسبت في البدء لاحدى الكليات، كنت أحلم بالحصول على درجة الدكتوراه في الفيزياء النظرية وحين لم أوفق تحولت إلى كلية أخرى لدراسة الأدب الغربي وكنت أكدّ جاهداً للحصول على ماجستير في الأدب المقارن على الأقل. غير أن أيّاً من تلك الأحلام لم يتحقق ولم احتصل على درجة علمية قط. ولذا غيرت مجرى حياتي نحو مجال آخر، نحو عالم المال الباهر، والأعمـال الحـرة المرغوبة وغير المرغوبة، حتى جمعت ثروة لا تأكلها النار، ثروة قادرة على امتاعي وتأمين عيش لي فيه من الدعة والرفاه ما يكفي لأكثر من حياة واحدة حتى لو استمر العمر لعدة قرون. سكنت اجمل البيوت، ركبت أفخم السيارات، أكلت من اطـايب الـطعام وعرفت أجمل النساء. نصف قرن من الكدح، نصف قرن من إحراق الذات بلهيب نار الحياة.

غير أن شبـح تلك السعـادة لم يكن قريباً بما يكفي إذ كان يرافقني مرض مزمن أكابده منذ طفولتي داء الصرع الأكبر، لا ضير، فالاسكنـدر المقـدوني و دوستـويفسكي قد لازمهما هذا المرض اللعين. ولم يجد المال إلى شفائي من سبيل على الرغم من طاقته الهائلة التي تفعل فعلها في حياة البشر.

أعود إلى وطني بكامل رغبتي. قد لا تصدقوني إن قلت لكم بأن الحنين يدفعني للعودة، سوف تصرخون بوجهي: ما أنت سوى إنسان مكابر، بل لست سوى مشروع إنسان، فأنت بعد أن اقتلعت

جذورك بيدك، وارتحلت لم تقم حتى بزيارة واحدة، ولم تكتب لنا رسالة ولم تكشف عن عنوانك البتة.

حقاً أني لم أقم بزيارة ولم أرسل خطاباً ولا أعلم أيّ شيء عنكم وخصوصاً عن القرية التي فيها نشأت، لكن أحداً منكم لم يبحث عني. كنت استقصي أخبار الوطن بين الحين والحين على الشبكات العالمية، أما الأهل والأقرباء فلا أعلم عنهم شيئاً ولا أدري أصلاً أن كانوا أحياء أم أموات. ليس سوى وجه واحد ظل يرتحل معي، يجلد أعماقي بنظراته الثقيلة، يلاحقني في غربتي: ذاك وجه أبي، وجه قروي دائم العبوس تنبيء ملامحه الحجرية عن التعنت والقسوة، كان يعتبر ولادتي مجرد لعنة، ويود لو تصرعني كلاب القرية حتى لا يقول له أحد ما: تزوج يا حامد فإن لم يعطك الله مثل خلق الله، يكن العوق منك.

كنت طفله الثاني الذي ولد له، أما أخي الوحيد الأكبر فلم أره، ولم يره أحد أصلاً، لقد مات ساعة مولده إذ أنه لم يتنفس، بل أنه لم يتخلق له رأس كي يتنفس منه. لفّته الحجة زريفة بقطعة من الخيش والقى به احدهم في بئر مهجورة غير أن الأحداث في القرية تتحدى، فهي أقوى من أن تندثر في أعماق بئر معتمة، وحين ولدت فرح أبي كثيراً لكن الغيبوبات التشنجية التي كانت تصيبني أدخلته في يأس مطلق. كانت أمي ابنة عمه وابنة خالته واختلط الدم بالدم. لن تنجب سوى أولاداً معوقين فثمة لعنة تعشعش في صلبك مثل الحيّة، لن يكون لك من يحمل اسمك

عزوة في الحياة او عوناً في الشيخوخة. ولمن تورث املاكك وأراضيك، ألزوجتيك العاقرتين أم للثالثة التي تلد لك عيالاً بلا رؤوس. . . ؟

لم اكن أجرؤ على طلبه أي شيء وخاصة النقود، ومن أين له بالنقود فالقرويون لم يكونوا يتعاملون بها أصلاً إلا ما ندر. كانت لهم حقول يبذرونها بالقمح والشعير وشياه يعتاشون على فضلاتها أما عن بيع الأرض فكان أهون على أحدهم الكفر دون ذلك. كانوا يقدّسون الأرض بالرغم من عدم اهتمامهم بها كما يجب، فهم يرهقونها بمواسم التبغ المتتالية أو أنهم يقنعون بما تطلع لهم من زرع وكثيراً ما يتركونها بواراً لشحة المطر، دون ان يغرسوا فيها شجرة أو يقيموا عليها مشروعاً انتاجياً فذلك ما لم يكن يخطر لهم ببال، وعلى الرغم من تلك الحياة البسيطة التي لا يميزها سوى الفقر المقنّع والحرمان وكسل الشتاء الذي يلفّع القرية فقد كانت حياتي الخاصة في صباي الأول تكاد تتفجر بالنشاط. كان في رأسي بالإضافة للصرع أحلام كثيرة لأن تلك النوبات التي كانت تهاجمني لم تكن لتصمد بوجه نار إرادتي الملتهبة.

أفدت كثيراً من الكتاتيب ثم من المدرسة حيث اجتزت الصفوف الثلاثة الأولى بسنة واحدة. حين فتحت الحكومة في قريتنا مدرسة إلزامية. أخذونا ذات يوم من الكتّاب واجروا لنا فحص مستوى، أذكر جيداً ابن خالتي «عواد» الذي كان بصحبتي ذات الظهر الحارق حيث أوقفنا أستاذ بدين محمر الوجه، يسح عرقاً أمام

اللوح الخشبي وسأل عواداً: هل تعرف الكتابة...؟ أجابه: نعم يا استاذ. إذن اكتب كلمة حصان يا ولد. فرسم عواد دائرة ووضع في مركزها نقطة. ما هذا؟ سأله المعلم باستغراب. فأجاب الولد متردداً: هذا حصان يا استاذ. وحين جاء دوري تقدمت بخطوة واثقة، كنت أعرف ما أصنع. أما هو فقد أخذوه للصف الأول الابتدائي.

كنت أعمل في العطل وأخبيء ما اكسب من نقود تحت صخرة عند البئر الغربي، استطعت جمع ما يكفي للسفر ولم اتجاوز الخامس عشرة، عملت عتالاً في الميناء، بعت القماش في القرى الريفية المتناثرة كتناثر البثور الصديدية في خد الصبا.

أتّجرت بالصحون الزجاجية، كنت أحملها من المدينة في صندوق أربطه على ظهر جحش هزيل. بعت المثلجات في كظيمة خشبية أحملها على ظهري في الطرقات النائية الممتدة تحت شمس الصيف التي تلسع الأرض بحرارتها الهائلة. كان عليّ أن أصنع نفسي واصنع من حياتي اسطورة، أحبني معلموا المدرسة، غير أن تلك لم تكن سوى البداية إذ كان عليّ أن أمسح العار عن جبين أبي. كنت أقرأ في الليل وفي النهار أذهب للمدرسة وفيما تبقّى من وقت أصنع احلامي. أتهمني أهل القرية بالعته لكثرة ما كنت أتغيب عن مجالسهم وكذلك بسبب الصرع صرت موضوعاً سائغاً لشكوكهم وهم يجلسون إلى مواقد النار يجترون سواليف السلف. أليس لكل قرية مجنونها! حتى أنهم قالوا بأني اكدح لحساب بعض الجنيّات. اقمت بعض العلاقات في المدينة

وتفتحت مداركي على حياة العصر ولم أكن ابذّر قرشاً واحداً سوى على بعض الأدوية المسكّنة إلا أن أهل القرية ظلوا يلقون في طريقي بنظراتهم المريبة، ولم يكن آنذاك طبيب واحد في كل المنطقة قد يبرأ ساحتي أمامهم أو يقنعهم بأن ليس في عقلي أية لوثة، إن هي إلا مجموعات عصبية تثار دفعة واحدة مثل زوبعة صحراء هائلة تجتاح دماغي الملتهب بحمى الحياة حاجبة عن مداركي تيار الوعي لتسقطني لدقائق على أعتاب مساكنهم أو فوق طرقاتهم الموحلة. كنت أزيل بيدي الخشنة الزبد الذي يختلط بالتراب والدماء فوق فمي المهشّم ثم انهض لاراود أحلام المجد حتى وصلت إلى نهاية البداية واجتمع لديّ من المال ما جعل موعد سفري قريباً، غير أن أهل القرية بدأ يراودهم الشك لكثرة ترددي إلى البئر حتى أن فكرة ملاحقة كانت تطاردني في ذلك الزمن الأحدب. ربما أنهم يعرفون عن المال أو أن أحداً يريد الاستيلاء عليه. تفاقمت في رأسي تلك الهواجس الاضطهادية حتى أني في الفترة الأخيرة لم أكن لأنم، أو لأدع الصخرة التي أدفن تحتها المال تغيب عن ناظري ولو أن المطر شح في ذلك العام أو أن السيول التي تدفقت بغزارة حين أقترب الرعاة والوزّادات التي تقع إلى الشرق شبه مهجورة محاولاً ملائمة المكتومية التي أخبىء تحتها المال ولم أعد اغلق أجفاني لكن الشتاء كان وافراً وطفحت وأهل القرية يزيدون انتشالهم للماء بكميات تفوق داعي البئر عند الحشد الذي تجمع تحت الصخرة ولم يكن يقبل بالنقود في منتصف النهار وما كانوا يعلمون شيئاً يعبئون به جرارهم وكلما تزايد

المبلغ نقص عدد المـــاء وكـأن تزايد المبلغ يفـوق عدد الـدلاء المنقوصة ومع ذلك كان أهل القرية يملئون شكوكهم والقلق الذي داهمني وأنا أعيد الصخرة إلى مكانها استعداداً للرحيل فقد حان موعد السفر.

obeikandl.com

obeikandl.com

الطريق ـ الحلم

obeikandl.com

obeikandl.com

الطريق ـ الحلم

الرجل. يخرج من الطائرة التي هبطت في منتصف النهار، لم يكن الوحيد، ثمة آخرون لكنه لا يكاد يشعر بوجودهم.

أكاد أحس باطن قدمي تلامس سطح الإسفلت الناعم معلنة نهاية اغتراب خلته لن يزول. سائق التاكسي ذو الملامح القروية قد يكون واحداً من أطفال القرية أمتهن القيادة بدل حراثة الأرض. ها هو ينطلق بسرعة معتدلة على طريق الاوتوستراد النافذ إلى المدينة.

إلى الفندق أيها السيد، أليس كذلك...؟ وأشعل سيجارته.

كان صوت المحرك يختلط بصوت الهواء الذي أخذ يضرب النافذة المفتوحة ساحباً الدخان بسرعة للخارج حيث يتلاشى في الفراغ. أرقب الشارع الخاوي. لكن...! كيف..؟ أين السراب...؟! كل الظروف ملائمة لظهوره وليس سوى الأشجار النامية على جانبيه، إنها تنزاح للخلف، طبعاً، هذا خداع بصري. الأشجار تبدو في لحظة كأرتال من الوحوش النافرة التي تحاول اللحاق بطائرة ما، مغادرة، الطريق بدلالة المنظور يلوح

مثل خط لا ينتابه سوى انحناء طفيف لا يكاد يظهر للعيان ليس ثمة غير سؤال. هل هذه الأشجار تتناقص أم تتزايد. . .؟ من المفروض أن يكون عددها ثابتاً، ما في ذلك شك إلا إذا كانوا في هذه اللحظة على الأقل يغرسون واحدة أو يقتلعون أخرى. حتى وإن كان عددها الكلي ثابت ومنته فهل يكون وجودها على جنبات الطريق دائماً مستمراً. . .؟

قد تشعل فيها النار صاعقة برقية خاطفة قبل أن تحمل إليها المطر، وقد تصير قاماتها الفارعة إلى رماد، وقد يلوى الجفاف في يوم ما أغصانها الخضراء فتذوي إلى خشب نخر. أو أنها قد تتكاثر وتدوم ما دام البشر يقومون بغرس فسائل جديدة بدل التالفة.
والطريق بحد ذاتها قد تنهار أو قد تهجر، حتى أن العشب ليطلع من أديمها الداكن إلا إذا امتدت إليها يد ما بالرعاية المناسبة.

شيء واحد لن يزول: إنه الإتجاه، الإتجاه هو الأصل حتى وإن بدى مبهماً في الفراغ ثلاثي البعد.

أما الطريق بما قد انفق عليها من مال للتشجير والتجميل فليست سوى ظهوراً عابراً. ولو تلاشى المطار والمدينة فسوف يظل الإتجاه قائماً. صحيح أنه سيفقد معناه غير أنه لن يزول. صدقوني إذا ما قلت لكم بأنني في هذه اللحظة أحس بلا جدوى اللغة، فالكلمات سفر، عودة، طريق، قد تخفق في التعبير وقد تفقد معناها ازاء ما احس به. المسألة ليست مسألة انتقال بين نقطتين، إن عودتي أعظم من أن أعبر عنها بالكلمات أو بالمتتاليات الهندسية أو حتى بالمعادلات الرياضية. أشعر بأني لم اغادر قط،

ولم اعـد قط، والذكريات التي تركتها ورائي والتي تكفي لتغطية ذاكـرة مساحتها نصف قرن من الزمن كأنها لا تخصني البتة، لا شيء، لاشيء البتة بمقدوره أن يربطني بالماضي، لقد شاهدت من صور الحياة ما يكفي لأحدد موقفي ولو لوهلة.

إن هذه الصور التي تتواتر عبر الذاكرة مكثفة الزمان والمكان في وحـدات متشـابكـة يشع من خلالها الحدث ليفنى في ذات اللحظة التي تستفزّ فيها صوره للحضور. وهذا الأحساس العميق بالفنـاء والذي لا اقدّر أن أحداً ما يشاركني فيه هو الوحيد الذي يخترق كينونتي وكأنها مجبولة عليه. إحساس رهيب حقاً، غالباً غير مفسر وإن كان له من دلالة ما في عقيمة، مستهترة. غير إن هذا الوهج المبهم الذي يطفر من الذاكرة عندما يصل مجموع الصور المختـزنـة فيها إلى قيمة ثابتة. القيمة الحرجة. يظل يلوح فيما يرتقي إلى ما يشبـه الحلم نحـو عالم من المثـال والروعة وحتى الكمال. لكنه عالم هش سرعان ما ينهار على ذاته تاركاً اللحظة الآنية عارية، مُرّة، تلهب بعريها ومرارتها الوجود والعدم على حد سواء. هذه الهنيهة الحاضرة التي يرتكز عليها الزمن حاملاً سوطه الجبار. مقطعاً أوصال حياتنا إلى ماض قد أفلت إلى الأبد ومستقبل لا نعيه، يستحيل حتى توقعه في بعض الظروف.

ولكن. . . ! ثمة في زمن ما لا بد للّحظة من أن تنضب هذه اللحـظة المتوحشة المليئة بالقيمة وبالتفاهة جنباً إلى جنب. قد يكشف انهيارهـا الغـطاء الـذي يحجب أرجـاء المطلق الزاهية التي تفيض بالنور وبسحر الديمومة. وإن كان غير ذلك فمن الأفضل أن

نترك الريح والنار يأخذانها ويصنعان منها سديماً ملتهباً حتى لا يتعرف عليها الزمن أو تخطر على بال أحد.

وهأنذا تسومني رغبتي العارمة في الإنطلاق محاولاً أن أفلت منها لأعود إليها من حيث أتيت. راضياً مرضياً، قانعاً بما كدت لنفسي من اوهام.

أنت أيها السيد: لقد وصلت.

يتكاثف دخان التبغ المنبعث من السيجارة في حجرة القيادة ليتلاشى ببطء في هواء المدينة. ليس ثمة أيّ دوي لمحرك الناقلة.

المساء،

الرجل يسترخي في سرير وثير في إحدى غرف فنادق الدرجة الخاصة، عاقداً يديه على صدره الذي لا يكاد يتمدد مع ترداد أنفاسه المتباعدة. أمامه جدار علقّت عليه بعناية لوحة زيتية ذات خلفية سوداء.

أعرف هذا النمط من الفن، إنه تابع للمدرسة السوريالية، إن هؤلاء يسجلون ما يشبّه لهم من رؤى بأنه دعاوى كشف، يظنون بأن في وسعهم التعبير عما فوق الواقع، كيف يتسنى لمخلوق أن ينخطف لما فوق واقعه مستشرفاً إن لم يكن قد فارقه بالفعل.

ينبت خلفي من الجدار ذي الديكور المكلف شمعدان صنع على الطراز الكلاسيكي غير أنه يضاء بالكهرباء. الجدار الثالث تحتله نافذة أنيقة واسعة تطل على جزء لا بأس به من المدينة.

أما الجدار الرابع فيغلق جزءاً منه باب خشبي ربما إنه مصنوع من خشب الموغانو، يفتح على المدخل المضاء بشكل غامض، علقت فيه خزانة خاوية، بالطبع يجب أن تكون خاوية، فأنا لم احمل معي أية أمتعة أو تحف ولا حتى تذكارات أو أيّ شيء آخر، لقد اخبرتكم لم يرافقني من تلك البلاد البعيدة سوى رقم احمله في رأسي ، إنه رقم الحساب الذي أودع تحته رصيدي في البنك. عدا ذلك فإن رأسي خاوية، أكثر خواء من خزانة الفندق. على أية حال لقد كان نهاراً حافلاً. رجعت إلى بلدي، حقاً لم يقم احد ما باستقبالي، وأنا بالمقابل لم اتوقع من أيما أحد ان ينتظرني وحتى أن يعلم بعودتي. غداً في الصباح سأذهب إلى القرية لا بد أنها صارت الآن مدينة، سوف أعرج على بيتنا القديم قد أجد فيه احداً من أهلي. النعاس يطبق أجفاني، نعاس خفيف كهبة نسيم طرية تنساب على سفح بيدر قمح في ليلة حصاد. النعاس يحرك أجفاني إنه يطبقها بالفعل، إنها تنغلق.

اللوحة المعلقة على الجدار، أي سوريالزم هذا. . . ؟ حيوان أشبه ما يكون بالحصان، حصان مجنح، البيغاسوس. . . ؟ غير أن له يدان بشريتان تنبتان من ظهره، قد يكون له اسم في الميثولوجيا أو قد تكون هاتان الذراعان لتمثال فينوس الأكتع. حسناً ليرسموا ما يشاؤون فإن وصول التيار السوريالي إلى هذه البلاد يعني أن الدنيا بألف. . . يا إلهي اللوحة، الحصان، هناك دائرة تحيط بالحصان، مرسومة ضمن اللوحة في مركزها نقطة تنبثق منها الأيدي الآدمية المطلقة في الفراغ، يجب ان اتحقق من ذلك، لكن لماذا لا أقدر

أن أفتح اجفاني. الظلام اطبق على كل شيء، أأنا في حلم كابوسي، عبثاً أحاول النهوض، جسدي يتثاقل أهي نوبة الصرع...؟ عامل الفندق الذي قادني إلى.. غرفتي إنه أبي، لا، إنه يشبهه فقط. لم يعمل أبي في المدينة، لقد كان قروياً بائساً. إنه يهبط الدرج الموشّى بالسجاد. أنساب خلفه بإيقاع رتيب لو ينظر قليلاً إلى الخلف لو اتحقق من ملامحه. لكن حتى لو تطلّع إلى الوراء فلن يكون أبي، إن لأبي وجهاً أعرفه جيداً، هذا الرجل يقودني إلى القرية، قد يكون واحداً من أهلها علم سراً بعودتي وجاء يدلني إلى الطريق، ربما فتحوا طرقاً جديدة للقرية، ربما غيروا اسمها، لكن، لا، حتى لو غبت عنها مليون عام فلن أضل. أنا أعرف كل حقل فيها، كل واد، كل بيت. أعرف كل مزراب ماء وكل ناصية شارع ترابية، أعرفها من بئرها الوحيدة التي تقع إلى... أين أختفى الرجل...؟

ها هي البئر، اسير نحوها بخطوات تتسارع بانتظام، أخطو فوق أعواد القش اليابسة التي أفلتت من المناجل، إنها تتكسّر تحتي مطلقة في الفضاء ذي الإضاءة الخافتة صوتاً حاداً، يحطم صمت المكان..خش..خش...ها هي البئر لقد اتسع بابها بعد أن هدمها الزمن وهي الآن جافة طمرتها الأتربة المترسبة، اصل لحافتها الحجرية. امد يدي أرفع حفنة من التراب إلى فمي العقها. لساني جاف لا يلتصق به شيء، حتى اللهاث لا يخرج من صدري غير هواء جافاً يكاد يحرق لساني. ترتعد فرائصي، أريد أن أصرخ، أن أعوي، أن أبكي، حنجرتي تصلبت وليس من قطرة

دمع واحدة، شيء ما يثني قدمي، يدغدغها، يا إلهي، هذه ليست أقدامي إنها قوائم حمار، الساق أيضاً، وحتى الركبة، لم اعد أحتمل، أكتشف أن ملابسي الممزقة ملطخة بالطين، لن أموت عطشاً ولن أموت غرقاً، أنا أمتص ثيابي، أخلع قميصي، أضعه في فمي، آكل ما عليه من وحل، أول لقمة من الطين تقطر رطوبتها في حلقي... تفو... تفو، يتساقط التراب من فمي أجمعه في حفنتي، لقمة ثانية وثالثة ورابعة، تمتلىء قبضتي بالتراب الجاف يتسرب خلال أصابعي، يعبر الفوهة، أسقط فوق تراب البئر لم اعد أرتجف، أحس بهدوء، هدوء لم اعهده من قبل، غير الهدوء الذي ينتابني حين استفيق من نوبات الصرع، أنهض من جديد، اجلس على الحافة، استنشق الهواء، وساقاي تتدليان في الفراغ الدائري للفوهة الحجرية، ها هما قدماي الآدميتان أحس بجمالها لأول مرة، أجل، قدماي جميلتان، جميلة هي قدم الإنسان، ومقدسة، أقدام البشر كلها متشابهة، الاختلاف قائم في وجهاتهم، في الطرقات التي يسلكونها.

القرية، القرية، سوف اشتري البئر، واعيد سملها، سأتملك الأرض المجاورة لها واعيد ملئها بالماء، قد احفر بئراً أخرى حيالها، او اثنتين وأجهزهما بماتورات الضخ، أيّ مشروع زراعي ناجح يمكن أن يقام هنا. لدي الكثير من المال غير انه لم تعد بي حاجة للأستثمار، سأقوم بعرض قروض جيدة على الأهالي، قروض طويلة الأمد، ولا يهمني أن سددت أم لم تسدد، المهم أن يشاركوني في امتلاكها.

هذي المساحات الشاسعة التي تمتد لآلاف الدونمات شرقي البئر، لا بد أن الماء وافر في باطنها، سنقيم أهم مشروع للري في البلاد، سوف نبني السدود لحفظ مياه المطر، ستنشأ هنا مساكن للعمـال والمزارعين، مدارس ومراكز صحية ودوائر بريد وملاعب للتنس، كل شيء من شأنـه أن يخفف عن هؤلاء البائسين قسوة الحياة، لن يكون هناك فقر أو كسل. وفي يوم ما سيمتزج تراب هذه الأرض بحلم الأنسان الذي يعيش فوقها وتنبت زيتوناً وحنطة وينعم بطمأنينة العيش. وفي هذه الأرض ستقوم الجامعات ومعاهد العلم جنباً إلى جنب مع المساجد ودور العبادة. ولا باس من دار للأوبرا ولو واحدة كي تنقّي ما قد يعلق بأرواح البشر من غبار ولن يكونوا ملزمين بعرض اعمال غربية فقط. إذ أن لهم في هذه الأرض تراثاً ومـوسيقى خاصـة، اصيلة، سوف يعيدون بنـاءهـا من جديد، وتطويرها من الترويدة، والحداء، والميجانا. ولكن قبل كل ذلك لا بد لنا من ان نكافح الشر أن نمسك بحمار وكلب ونعلقهما في قفص رمزاً لأنتصارنا.

آه. . . أشعر بابتهاج، أول مرة احس بمعنى الوطن، الوطن ليس قطعة ارض تبني فيها منزلاً ترتحل عنه أو تعود إليه صانعاً ما صنعت في حياتك، ليس الوطن أرضاً تأكل من خيراتها، او تكسب فيهـا ذهبـاً وفضـة، وليس الـوطن مجموعة من البشر يلدونك أو تلدهم، الوطن هو مكان تحس أنك تنبع منه وبعد أن تتدفق في شعابه وتستوي متنسماً هواه العليل تسير بخطى واثقة حراً، كريماً آمناً، حتى إذا ما انتهت خطواتك، عدت متدفقاً كما بدات، تسيل

بأتجاه بئرك التي تستقر في عمقها، وتظل هكذا حتى تعود لتتدفق من جديد.

الوطن هو أي مكان في الكون يمنحك الخلود.

أحد ما يقرع باب الغرفة، يبدو أنني قد نمت طوال الليل، إني ذاهب للقرية.

obeikandl.com

obeikandl.com

البئر

obeikandl.com

obeikandl.com

البئر

الرجل الجالس إلى حافة البئر المهجورة، يرخي أجفانه بصمت، أجفان تهدلت تحت وهج المدار، اجفان نصف مفتوحة ونصف مغلقة، تُدْلي بأبصارها إلى عقمة حيث الماء الراكد، في التجويف الصخري المكسو بالاشنّة.

أحس بامتلاء البئر، ربما أن المياه قد تجمعت فيها إلى النصف، أو ربما كانت طافحة، وقد تكون أشعة الشمس وعوامل التبخر قد جففت نصف مائها أما أن يكون السكان قد انتشلوا منها حديثاً فهذا احتمال بعيد، إذ أن القرية هي الآن مدينة عامرة مؤمنة بكافة الخدمات من هواتف وكهرباء وطرق معبدة، كراج للباصات ومسلخ، وباقي وسائل الحياة العصرية بالإضافة إلى مدينة صناعية تقع عند طرفها الجنوبي، أما هذه البئر المنسيّة فيبدو أنها بقيت على حالها منذ سنين، قابعة هنا، نصف مفرغة أو نصف مملوءة، لا أدري، ولا أعلم الزمن الذي أنقضى على حفرها، سيما وان المطر لم يعد يهطل على هذه البقاع بالوفرة التي تملأ الآبار القديمة المنبوشة في الصخر، في حين تبدو لي البئر المهجورة ذات الخرزة الحجرية كانها المكان الوحيد المتبقي من

القـرية، بعـد أن اجتـاح الإسفلت والإسمنت المسلح طرقـاتها التـرابية، ومشارفها وحتى الأسوار التي سلسلتها أيدي الفلاحين الخشنـة فيمـا مضى، كلهـا قد اختفت وظهر مكانها جدران من الطوب والإسمنت.

لبضعـة عقود خلت كانت هذه البئر تسقي البهائم جنباً إلى جنب مع البشر حين كانت المصدر الوحيد للمياه التجميعية. أكاد استـرجـع في ذاكرتي صوت ارتطام الدلاء بالسطح المعتم للماء البارد. فلاش... ميحا... ميحا... حيث الورّادات كن يملأن ازواج القرب المطّاطية السوداء المعلقة على ظهور الحمير، وتظل قطرات الماء الساقطة تتناثر على الطريق الترابي الذي يجتاز حقول القمح.

لم يكن مسموحاً لي بالاقتراب من باب البئر إذ أنها قد ابتلعت فيما مضى عدداً من الأولاد. بالإضافة إلى عدد من الرجال والنساء الذين ألقوا بأنفسهم فيها، لقد كانت هذه هي الطريقة المعروفة للانتحار.

في هذه البئر ألقت فاشا بنفسها، ثم ابن خديجة تلك المرأة المسكينـة التي اسقـطت رفسـة حمـار طفلها وهو في الثالثة من العمر، وابن حامد. أذكر أن كلباً مسعوراً كان قد عضه في كاحله ولم تتمكن الحكيمة، وهي أمراة كانت تداوي أهل القرية بالكي والأعشـاب من انقاذه، وأصيب بداء الكلب، وحين استفحل به المرض أخذ ينبح، وانتفخ بطنه، وقال أهل القرية: إنه قد حبل وسوف يلد جراء صغيرة. غير أنه في النهاية امتنع عن شرب الماء،

مزق ثيابه وظل يجري حتى وصل إلى البئر وألقى بجسده فيها اثناء سورة من السعار وهو في السابعة من عمره.

لقد حكم أهل القرية على فاشا بالموت قبل انتحارها بأيام، ولم تجد بداً من إخفاء جثتها هنا، قبل أن تتفسخ في العراء، أو يقرر شيخ العشيرة حشوها بالسم وإلقائها في الوادي المجاور. هكذا كانوا يفعلون بجثث الحمير النافقة، كانوا يفتحون لحمها ويحشونه بالزرنيخ حتى إذا ما تناهشتها الكلاب الظالة تخلصوا منها، تلك الكلاب المسعورة التي لم تكن تنقطع عن عض أولادهم، اما هي فلن يرحمها أحد، إذ ربما يحشون جسدها المتورم بالسم وهي على قيد الحياة.

ها هي تركض على الطريق الترابي باتجاه الشرق، لاأدري لِمَ كان الفلاحون يطلقون عليها اسم البئر الغربي بالرغم من وجودها شرقي القرية.

عواد أيضاً رفيق الصبا كان قد ألقى بنفسه في البئر بعد أن اضطهده أبوه وأهل القرية، لقد اتهموه بالسرقة، هذه الجريمة النكراء في ذلك الوسط الريفي، كان احدهم قد سرق المختار، ودارت الشبهات حوله. كان مختار القرية هو الوحيد الذي لا يقبل بدل أتعابه وخدماته سوى النقود. كان يتقاضى خمسة عشر قرشاً مقابل ختمه على شهادة الميلاد وعشرة قروش مقابل الختم على شهادة الوفاة. كان رجلاً سميناً ذا خدين متوردين يحاصران أنفاً دقيقاً يقطر منه البخل، ولم يكن ليقبل أعذار الناس، وإن كانوا يكرمونه كارهين بالهدايا من سمن بلدي ولبن قطيع، لم يتنازل قط

عن أخذ النقود مقابل ختمه. على النقيض من شيخ الكتّاب الذي كان يرضى بالبيضة والرغيف، أو الحاج أبي سليم. وكان هذا يرضى بصاع من القمح أو الشعير بدل السكر والشاي، أو بدل ما يحتاجه القرويون والبدو من مواد صناعية لا توجد إلا في دكانه الوحيدة.

حين سطى أحدهم على بيت المختار وسرق ماله دارت الشبهات حول عواد، وراح أهل القرية يراقبونه لفترة من بعيد، حتى وجدوا مالاً مخبئاً في مكان ما كان عواد يتردد عليه، وهناك في منتصف النهار، راح أهله وأقربائه يضربونه معنفين موبخين:

أيها الخائن، تفو، الأفعى لا تعض بطنها، لم يظهر في تاريخ العشيرة كلها منذ خلقها الله أيّ سارق. أما أنت فالحمير والكلاب أفضل منك، سارق، سارق، ولم يجد عواد في النهاية بداً من القاء نفسه في البئر. كان يافعاً في الخامسة عشرة من عمره، وإن بدى صلب الملامح جيد النمو، حدث هذا بعد انتحار فاشا بثلاثة أشهر. فاشا... أول زانية في القرية، أخذت تنتفخ ولم يلحظ أحد ذلك غير أمها التي كانت تضع على بطنها أكياس القمح لعلها تجهض، غير أن جسدها القروي الذي يمتاز بالقوة والجلد لم يتراجع عن حمله، استطاع أن يخفي سرها العميق طوال تسعة أشهر، واخذت الأقاويل تنتقل من بيت إلى بيت:

فاشا حبلى ... فاشا النجسة...

ها هم يبحثون عنها، ولو ثبت لهم ذلك فسوف يقتلونها ثم يقطعونها ويلقونها للكلاب.

شقت فاشا ثوبها وراحت تعدو مثل كلب أجرب انتابه السعار، على الطريق الترابي النافذ إلى الشرق، تصل الحافة، يفجئها المخاض، غير أنها تغرق نفسها حاسمة بذلك حياة من البؤس والشقاء. لقد ألقت بنفسها وبجنينها هنا، في البئر الغربي، أبو بابين، حقاً، لاأدري لِمَ كان الفلاحون يسمونها هكذا، إنها تقع تماماً شرقي القرية وليس لها سوى باباً واحداً. وحين تبعها عواد بعد ذلك، ظن أهل القرية بأنه الذي أفتعل معها ما جنت، كيف لا وهم ينسبون إليه كل رديئة وكل صنيعة فاسدة وكأنه الصخرة التي يكسرون عليها فراغهم الخانق وكسلهم ومفاسدهم الخاصة. ظل يكابد ويكابد، حتى أنهار في النهاية، وظلوا لعدة أسابيع بعد رحيله يدخلون أنفسهم في مهاترات فجة لم يلق عليها الصمت غير ظل الموت البارد.

شقي آخر هوى في ظلام البئر، إنه أبو همشة. وكان رجلاً فاضلاً من وجهاء العشيرة، لكن ما مر بحياته من هموم لم يترك له مدىً لاحتمال الصيرورة، لقد كان الوحيد الذي باع أرضه في القرية، تزوج ثلاث مرات ثم أبتنى منزلاً ذي طبقتين، العليّة الوحيدة في تلك الآونة، وأشترى سيارة، السيارة الأولى في القرية في وقت كان الناس فيه يركبون الحمير، أطلق على سيارته اسم سميرة، غير أنه في فترة من حياته ادمن الخمر ولعب القمار، إذ كان يتردد على المدينة والتف على ثلّة من رواد المقاهي ، علموه لعب الورق وتدخين النارجيله وشرب العرق كان يغرق همه في الكاس، ثم صار الكأس يغرق ماله وعقله، حتّى ضاعت كل دنانيره، باع

بيته وسيارته، طلّق نساءه، وفي الواحدة والثلاثين من عمره لم يكن ليجد ما يسد به الرمق، أحتقره اهل القرية وصار منبوذاً يستعطي اللقمة، ولما لم يعد يحتمل، أنهى هو الآخر حياته في هذه البئر.

لكن أيّ غباء، أيّ غباء...

بل أية ظروف قاسية تلك التي دفعت بكل هؤلاء إلى إغراق أنفسهم...؟ فالقرية الغابرة الساذجة هي الآن مدينة كأي مدينة أخرى، فيها محل لبيع الخمور وبنك يتعامل بالربا ودار للسينما. أما النساء فلبسن الماكسي ثم الفستان بعد أن كان الثوب الأسود يلفهن جيلاً بعد جيل. والرجال فرّعوا رؤوسهم وزّينوا شورابهم، تركوا الأرض والماشية، وصاروا موظفين، تجار، أساتذة ومدراء في دواوين الدولة. أما الوجوه الغابرة فقد تلاشت سحنة سحنة بعد أن جلّدها الزمن بسوطه الجبار. ولو أن الحاج فلاح عاد للحياة في هذا الزمان، لأحرق الأرض بمن عليها لما ظهر فيها من دواعي الفساد، سرقات، تزوير عملات أجنبية، حوادث السطو المسلح، جفاء قد أصاب الناس حتى تهالكوا وراء المادة، عمليات أغتصاب يشكّل ظهورها في هذا المجتمع النظيف نسبياً تحدياً للقانون الرادع. ثمة وجوه كثيرة تحمل دماء جديدة حلّت في القرية، حارات بأكملها نشأت، كلهم غرباء، في طريقي، إلى هنا لم امر بوجه واحد أعرفه ويبدو لي أن أحداً منهم لا يعرفني.

وهـأنـذا بعـد سنين لا أدرك تقديرها اجد نفسي جالساً إلى الحافة الحجرية للبئر، إنه كما قلت يقع إلى الشرق وليس له سوى باباً واحداً. أدلي بأبصاري إلى عمقه لا أكاد اسمع أو أحس غير

صدى تلك الأيام البعيدة، وكـأن أذني قد صارت مجساً كونياً هائلاً. توشك أن تكشف عن الألم المر والقهر الذي انطلق مع صياح فاشا وصرخات عواد مختلطاً بنهيق حمير القرية ونباح كلابها، بصوت الـراعـاة المتواشج مع رنين الأجراس المعلقة في رقاب الكباش . . . الحداء الذي تهادى من حناجر البدو اليابسة وهم يقطعون مشارف القرية على بعارينهم، زيز الحصاد يزخرف سكون الليالي المقمرة، أصوات كثيرة تمتزج بقرع جرس المدرسة وعطسة شيخ الكتّاب ونحنحة أبي، صوت الأستاذ أبي محمود ينعكس عن اللوح الأسـود. . . راس رووس. . . دار دور. . . الضحكـة المقهقهة الشـرهـة لمختـار القـرية، حوقلة جدتي وبسملتها في الأصابيح الندية، الصوت الشجي لأبي تيسير المؤذن وهو يصعد على السلم الخشبي إلى ظهر الجامع، واضعاً كفه على صدغه الأيمن. . . الله أكبر. . . الله أكبر يطلقها في الجهات الأربعة مثل الحمائم.

كل هذه الأصوات تنبع من البئر الغربي ، تختلط في رأسي بدويّ السيارات ورنين الـذهب الـذي جمعتـه في غربتي، مع تأوهـات ماليسيا الدافئة والموسيقى الاوركسترالية الرائعة المنبعثة عبـر النـوافـذ البهية ذات الـزجـاج الملون، أصوات، اصوات، تتراكب فيما بينها صارخة بوجه الزمن، كأنها مرافعة أزلية خالدة غير قابلة للامحاء، تتحد جميعها في لحظة ارتطام الدلو الثقيل الفارغ بماء البئر الغربي :

فلاش. . . ميحا. . . ميحا. . .

ميحا. . . حمامة تقطع سطح الماء الراكد. في الصبا كان

الأولاد يأخـذون حبلاً سميكاً يعقدونه من أوله إلى آخره ويتدلّون عليه درْجاً إلى أعماق البئر لجمع الطيور البرية التي كانت تعشعش هنا في سني المحل. و غالباً ما يكون الماء ضحلاً، بارداً، يقرص الأقدام الحافية بالإضافة إلى المخاطر الأخرى كالعلق والسقوط والتـواء القدم، هذا غير الحيات السامة والجنيات الساكنات في البئر واللاتي يروي عنهن أهل القرى الكثير من الخرافات.

هل كانت تلك حمـامـة ذاك الـطائـر الـذي قطع المسطح الدائري للماء، لا، لا بد أنها أخيلة تهيأت لي فيما أنا تحت التأثير الهائل لدفق الذاكرة. من غير المعقول حمامة تقطع قطرياً خاصرة البئـر. لا، هذا طائر آخر، يا إلهي إنها حمامة لقد طافت تحت الماء، كانت تحرك أجنحتها، لا بد أنها خرجت من الصخر. من جدار البئر. لقد تلاشت. ليس لأجنحتها من صدى. عاد سطح الماء هادىء كما كان. بعد ان اختفت الموجة التي شقها الطائر بجناحه. لا بد أن هذه البئر مسكونة فعلاً. ربما أنها أرواح كانت حبيسة المياه العميقة كل هذه السنين، قد تكون روح فاشا.

يتكرر المشهد، أرى بأم عيني حمامة أخرى أو ربما أنه نفس الـطير الأول يطفـو تحت الماء، بسرعة مذهلة. يعبر مثل ومضة خارقة استطيع أن اميّز أنه يسبح بشكل مقلوب. ها هي مرة اخرى...

ها هما الطائران يظهران معاً يا إلهي الحمام، الحمام يتكاثف، ثلاثـة، سبعـة، ليس بمقـدوري أن أحدد العدد، سرب الطيور ينبعث من الجدار الصخري يتلاشى فيه والجاً في الجهة المقابلة،

تختفي جميعها في لحظة واحدة. عاد الماء خاوياً، لا أكاد أميز شيئاً البتة سوى الماء المثار ووجيب قلبي الذي صار يخفق بشدة، يكاد يغادر الصدر المنقبض لهول المشهد. أشد أصابعي على الحافة الملساء لفوهة البئر الحجرية، إنه يتكرر، هذا سرب آخر يجتاح المكان. متدفقاً ينبع من جنباته المعتمة لكنه الآن يتباطىء، استطيع أن اتابع، أنا أبصر بدقة متناهية حشد الطيور، كلها مقلوبة، إنها تخرج من الجدار تطفو تحت الماء بلا صوت، ثم تختفي تباعاً، زوجاً زوجاً، بلا صوت. كل زوج منها يتلاشى حال تصادمه كاشفاً تحته بقعة صافية شديدة الإضاءة تنقشع عن دلو من المطّاط. هذه قطعة حديدية صدئة ربما جزىء من محقن محطم يتماوج في العمق، حمامتان تتصادمان وفي مكان تلاشيهما تظهر فردة حذاء عتيقة ربما كان هذا حذاء فاشا أو عواد. . لا، إن عواد لم ينتعل في حياته أيّ حذاء، كان يذهب إلى المدرسة بصندل مقطّع حتى في أشد أيام الشتاء برودة.

حمامتان تختفيان في مركز البئر حيث تشكلان دوامة غامضة، وفي الخلفية ينبجس نور ساطع هناك حبل بال ربط طرفه إلى وتد حديدية، معازق، دلاء، أحذية، إنها مهمات القرويين التي سقطت في البئر، ربما كانت هذه نفس الأشياء بعينها التي لمستها في طفولتي، يا إلهي، إنني أشهد ماضي القرية.

اما هذه الطيور العجيبة، فمن أين أتت. . .؟ لماذا لا تنكشف الأشياء المخفية في البئر إلا في منطقة محددة وللحظة خاطفة. أية طيور شيطانية هذه التي يخفق جناحها تحت الماء، لا

بد أنني أمام ظاهرة كونية أو نفسية معقدة، لم يجربها أحد من قبل، وأين. . .؟ في قريتي القديمة، عند حافة البئر الغربي وفي منتصف النهار، سوف أبلغ الجهات المسؤولة وأحضر الصحفيين، أحس بدوار، تكاد الثقالة تجرني للأسفل. أوشك أن أهوي.

الرجل الجالس إلى حافة البئر، يرسل بأبصاره إلى السمت، ثم يحوله إلى الأفق البعيد، حيث أسراب من الطيور تختفي وراء تلة جرداء إلا من بعض الصخور المحيطة بمساحات من أرض حديثة الحراثة، تزيد من حمرتها الداكنة أشعة شمس غاربة.

obeikandl.com

الفعل ـ الوهم

obeikandl.com

obeikandl.com

الفعل ـ الوهم

الصباح،

التراب، الحصى، يغطي الطريق السالك إلى المنزل القديم، حيث الحجارة الملساء المتناثرة تستقبل المطر. القطرات الأولى كبيرة لها رؤوس مدببة كالنجوم، تنطبع لبرهة فوق الحجر الساخن قبل أن تتواشج مع غيرها من القطرات مبشرة بهطول المطر. عندما في الأعالي سحابة قاتمة وأخرى رمادية تجرها الرياح نحو الفجوة المتبقية في السماء حيث ألوان الطيف تنسكب على حوافها السديمية. الغيمتان تندمجان في كتلة واحدة جبارة تمنع الأشعة المتحللة من التسرب للأسفل.

الأبخرة المتصاعدة من الأرض الدافئة تحمل رائحة التراب المنتشي بماء المطر، يتشكل الوحل، يراكمه الحذاء في الطريق السالك باتجاه بيتنا القديم. يصير الحذاء ثقيلاً ينفلت، تنغرس القدم العارية في الطين.

أصل البوابة الحديدية، أدفعها فتنفتح على الباحة الواسعة حيث الجرار الفخارية تغتسل تحت رشق المطر، جرار كثيرة، تملأ الباحة الممتدة أمام المنزل المهجور، ثمة خلف البوابة جرة تستقبل المطر بعنقها المكسور، على مقربة منها ثلاث جرار سليمة

تتكىء الواحدة منها على الأخرى وكأنها قرويات ثلاث جالسات يستمتعن بما تسره أحدهن للثانية، في الركن الآخر من الباحة كومة جرار أخرى مكدسة، يبدو معظمها سليماً تطل بفوهاتها في شتى الاتجاهات. استطيع تحديد عددها، إنها سبعة جرار فخارية كانها مجموعة من البشر جاثمة تحت المطر تستحم بالماء الهاطل بغزارة.

كومة أخرى على مقربة منها تكسر معظمها تحت ثقل بعضها البعض، غير أني استطيع تحديد عددها، هذه واحدة، أثنتان، ثلاث، أربع. وهذه نصف جرة ومع هذا النصف يكون مجموعها خمس عشرة جرة.

أصل إلى باب المنزل الذي يلفه المطر، أدور حوله، يا إلهي هنا كومة أخرى من الجرار، كومة ضخمة هذه المرة، مكدسة في شبه تلة صغيرة تهشم معظمها إلى قطع صغيرة مفتتة قد لا يكون بمقدور أحد إحصائها فقد طحنت بعض أجزائها حتى أختلطت بتراب الباحة تاركة لوناً قرمزياً في بقعة تحيط بالكومة، يبدو أن جرار القرية كلها قد جمعت هنا، أدور حول البيت الطيني المبتل، أصل الباب الخشبي، يبدو أنه مغلق، أمد يدي أهزه، إنه موصد، أهزه بشده، ليس من سبيل للدخول، اشاهد بالقرب من المصطبة معزقة حديدية غرق ذراعها في الوحل، أرفعها، أهوي بها على الباب، ألج المنزل، إنه فارغ، أدور فيه، إنه مؤلف من حجرة واحدة كبيرة ليس فيها من متاع أو أثاث أو أيّ شيء آخر، ثمة نافذة وحيدة تقع في الجدار العريض، يبد ر ان زجاجها قد تكلّس منذ زمن فهو لا

يكاد يسرب بصيصاً يذكر من النور. وكأنه لا يستجيب لوقع المطر الـذي يتسـاقط فوقـه بشـدة، فلا ينبعث عن النافذة سوى صوت خفيض للزخات المتعاقبة في الخارج، السقف، مركب من عيدان القصب المرصوصة بعناية. يد فلاح خبير تستطيع إنشاء مثل هذا البيت، الجدران تآكلت، انسلخ عنها الجير ومعه مساحات واسعة من الـطين الـذي كان يبـطنهـا، بعض الـطحـالب نمت فيها هنا وهناك، هذه أعواد من الحنطة والشعير انبتت في جدار البيت جنباً إلى جنب مع الحرمل. ثمة مشكاة تبرز من الزاوية المحصورة بين الباب والنافذة، علق فيها سراج زيتي عفى عليه الزمن، إلى جانبه مزهبـة صوفية مزركشـة، أكلتهـا العطونة، أمد يدي أتناولها، ثمة شيء ما بداخلهـا، إنـه صنـدوق صغير من الحديد، وثمة مفتاح مربـوط بخيط بالي من الكتان، يا إلهي، الجرار، الجرار، اترك الصنـدوق يسقط من يدي أهـرع للخـارج، ما يزال المـطر يغرق السـاحة، إنها الجرار، إن أكوامها تشكل الأعداد الاولى من رقم الحسـاب الذي أودع تحته رصيدي في البنك، يا للصدفة، أقفز فوق الاوحال، أنزلق، أنهض من جديد وأصير اعدو كالمجنون من كومـة جرار لأخـرى، هذه جرة واحدة، وهناك ثلاث جرار، وهذه الكـومـة ذات الجـرار السبعـة، ثم هنا خمسة عشر جرة.. واحد وثلاثة، وسبعة، وخمس عشر.

إن رقم حسـابي في البنك هو: ٦٣٣١١٥٧٣١. ولو كانت الكومة الكبيرة خلف المنزل تشكل ما مجموعه ٦٣٣١ جرة... فهذا يعني أن الجرار محددة برقم الإيداع ولكن لا، فالكومة خلف

المنزل لا تبدو بمثل هذه الضخامة.

أتكيء على المصطبة المبللة أجلس مشابكاً بين أصابعي بشدة، أخذ المطر بالانحسار، لا بد من وجود اكوام اخرى من الجرار، إن الأكوام تتزايد، ربما تكون كومتان إحداهما هذه التي خلف المنزل والتي لن يقدر أحد أن يحدد عددها. معظمها قد طحن ولكن قد تكون مجموعة مكونة من ٣١ جرة، ولا بد من وجود كومة أخرى تكمل رقم الحساب، وتلك المجموعة الغائبة يجب أن تكون مؤلفة من ٦٣ جرة... ١، ٣، ٧، ١٥، ٣١، ٦٣ (٦٣٣١١٥٧٣١) وبهذا يكتمل الرقم، ٦٣.. يا إلهي.. إنه أنا، أنا الآن في الثالثة والستين من عمري أجل لقد رحلت عن القرية في الخامسة عشرة ومكثت في الغربة خمسون سنة.. لا بل ٤٨ سنة بالتحديد، يا إله الكون أتكون هذه الأرقام هي اعمار البشر.. من الذي كان عمره ٣١ سنة من أهل القرية..؟ إنه أبو همشة، الذي ألقى بنفسه في البئر الغربي وعواد ابن خالتي، لقد مات عواد في الخامس عشرة في نفس البئر. وفي السابعة من عمره غرق ابن حامد وفي الثالثة ابن خديجة.

بقيت كومة واحدة مكونة من جرة واحدة، ولكن هناك فاشا، لقد كانت أول من ألقى بنفسه في البئر، وأنا لا أعرف عمرها بالتحديد، قد يكون كل هذا هراء ومصادفة عشوائية.. لكن لا كانت فاشا حبلى، كان في بطنها جنين... جنين واحد.. جرة واحدة...، ٦٣ جرة.. أين كومتي أنا...؟ أم أنني أنا الكومة...؟ هل تحدد عمري مسبقاً... أأنا حي أم ميت...؟

هل أكون مجرد كومة جرار فخارية طحنها الزمن وصنع من طينتها بشراً. . ؟ هل سأموت حين سأعثر على كومتي، كم جرة منها قد تكسرت وتفتت، كم بقي لي من الجرار لأعيشها، لكني في الثالثة والستين ويجب أن أكون ميتاً الآن. ليس هذا سوى هراء، هراء رجل كهل، خرف، عاد إلى قريته بعد غياب طويل.

توقف هطول المطر تماماً، أنهض مترنحاً لا أكاد أبصر أمامي، أدخل ثانية إلى البيت، أرفع الصندوق الحديدي الصغير، أمسك بالمفتاح، ولكني للمرة الثانية أتركه يسقط من يدي، أنتقل بسرعة إلى المصطبة تحت ضوء الشمس وأنا أخرج من جيبي قلماً وورقة:

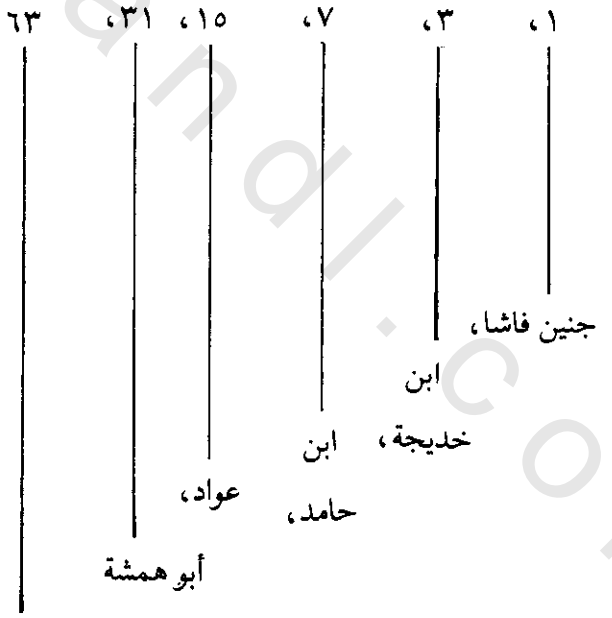

يا إلهي، هذه متتالية رياضية، إنها تندرج تحت المقياس ٢ن+١ . . مستحيل إنه المقياس الذي وضعه بوهر (Boher) للتوزيع المداري للألكترونات حول الذرة، هل هذا أيضاً وهم . . ؟ . .

غير معقول، إنها مجرد متتالية، قد تكون مجرد مصادفات عشوائية، ما هي العلاقة. لا، لا، هذا مستحيل.

الجرار، رقم حسابي، أعمار البشر، البئر، القرية، الحياة، النظام الذري، الزمان، الموت، أوهام، صدف، أوهام، عشوائية. . ليس في البئر طيور تطفوا تحت الماء، وجرار الفخار لا تعني أعمار البشر، ليس هذا سوى وهم ملابسات. . .

أهرع للخارج حاملاً المعزقة، أهوي بها على الجرار، أحطمها، أسويها مع سطح الباحة، تختلط بالطين، أعود إلى مصطبة البيت القي بنفسي وقد أعياني الرهق، لكن أنفاسي تهدأ وأنا استرخي تحت أشعة الشمس المتوهجة، تسفع الباحة والبيت وكل ما في الوجود، بخار الماء يتسامى حاملاً معه رائحة التراب والصلصال، الصندوق، ماذا يوجد فيه. . .؟ هل أقوم لأفتحه الآن. ربما يكون فارغاً مثل البيت أو ربما يكون مليئاً بالعقارب السامة قد يكون فيه مال أو ذهب، ولكنني لست بحاجة إلى أيّ شيء، أريد أن أستريح على مصطبة بيتنا القديم تحت اشعة الشمس، لن أفتح الصندوق، ماذا يمكن أن يكون فيه، جزء من جرة فخارية، حفنة من الصلصال، ذهب، مخطوطة سرية مسجل

فيها تاريخ الكون والإنسان والموت والحياة. . لا، ما عاد يهمني شيء، سوف استأجر منزلاً في القرية أعيش فيه ما تبقى لي من العمر. سأكتب عن حياتي، هذا حقاً ما أرغب به.

obeikandl.com

obeikandl.com

انغلاق الدائرة

obeikandl.com

obeikandl.com

انغلاق الدائرة

في لحظة تقع بين لحظتين
رأيت عالماً لا أستطيع أن أصفه . . .
ولا أدري
هل كان علي أن أفرح
أم أن أحزن
ولا أدري ان كنت الوحيد الذي رأى .

أيتهـا الأرض، أيتها الأم الكاهنة، العاشقة أبداً، المعشوقة أبداً، يا نجمة الصبح الليلكية المنتصرة أبداً والمهزومة أبداً، هل ثمة في حضنك لحد يضم رفاتي .

أيهـا الأبن الضال، كيف استطعت أن تنسى الطريق إليّ، حياتك الممتدة بين أرتعاشات الطين والرغبة، الرغبة الأقوى من كل شيء، رغبتك أنت في الوجود .

أنـا، أنت . . كلانـا في البـرزخ، خلف المـوت والحياة،

obeikandl.com

تجمعنا البهجة ـ الدوران حول عرش النور، التسبيح ، الإبتهال، وحلمك بالتفردية، بالوهم الذي خلته حرية.

حنوت عليك، وقذفت بك في أعماقي، رغبة أخرى، الرغبة الأخيرة، حفنة من بذور يابسة، في هذه الصحراء ذات الحجارة النيزكية، المتناثرة في الأرجاء، المشتعلة بحلم نجمي دافىء وكل ما جمعت من رصيد أيامك، وكل ما تبقى في كفي حفنة من تراب، طينة سراج زيتي، وهأنذا في انتظار الموسم القادم حيث الحلم لا يطارد الحلم والنشوة لا تحصد النشوة. أقذفك في أعماقي نزوة من نزوات اللانهاية، لكنك حين تصل إلى رحمي تتعشقني حتى تريد أن تراني، ولم يزدك المشهد إلا ذهولاً، إذ لم تر سوى الغطاء الذي أحتمي به من رياح العدم، غطاء صلب هو الكون، وحده الحلم بمقدوره أن يخترقه، الحلم الذي اتمخض عنه، في كل محاولة للعبور من حيث الوجود الصرف الذي هو أنا، إلى حيث الوجود التفردي المغاير، ثمة أنت، بعقلك المنفصم الذي يمتلىء عليك بصور الحياة، إذ تسعى كادحاً لأحصائها، لأنك تعرف الواحد.

ها أنذا احتضنك من جديد، إذ تعود هلامياً كسابق عهدك، خليطاً من الرغبة والنسيان، حتى إذا ما افترقنا لم تكف عن الحنين إلى رحمي، لكن لا يعلق بخيالك غير صور شوهاء، تكدّس تراكيبها يائساً تستنطق روح الحقيقة، وما وصلت لغير نسيج واه. لا مو بالحلم ولا هو بالواقع، أما أنا، فباقية في هجعتي الأزلية، لا أحلم بالسوى، بل بأنت، أنت، أيها الكوكبي المضرج بالزبد، يا

حلم السرمد الذي طفحت به الأعماق، يا تاج الخليقة، يا طفلي، وحيداً أنت بين الموجة والموجة، وحيداً بين الماء والجدار، بين الحبل والدلاء، تتصدع جدران البئر المشبوهة، والمطلية بالجير، ولا تسقط في الحدقة سوى الذكريات الحجرية الموحشة، اللجاجة المتكسرة للمياه المرّة، لا تنىء عني، اقترب، اقترب، ألم تكن الرحلة تحت الشمس تحمل الضفيرة، والرحلة في العمق تحمل الوجه المحطم، أدن مني، تدفق في أحشائي من جديد، رغبة حارقة تلهب وجودي.

أنا وأنت في المرآة، التي علقها الزمن ـ الموت على بوابة الجحيم، فإن كانت لك رغبة واحدة لمّا تحترق بعد فاقفز خارجاً، قبل أن تتلاشى في اللهيب، لم اعد أراك، لم اعد أسمعك، الدفق الهائل للطاقة بدأ يذيب الحواف، إنها تنحني، إنها تنصهر، نحن ن ت لا ش ى. .

أيتها الأرض، أيتها الأم الكاهنة، العاشقة أبداً، المعشوقة أبداً، يا نجمة المساء القرمزية، المنتصرة أبداً، والمهزومة أبداً، هل ثمة في حضنك بيت يجمع شتاتي.

أيها الأبن الضال، قبلما ينزل المطر، أصنع أقنعتك، عجينة من الدم والصلصال، قناع الفرح الهزلي للجرح الرابض تحت القشرة، الذي لا ينزف، والذي لا يجف، والجرح الهلوسي، للاستسقاء المتواصل، للبكاء المر، والضحك المنتصر، وأقنعة أخرى احتياطية للمياه الكدرة.

قبلما ينزل المطر ويتفتق الربيع عن أزهار الطفولة الحارقة، أصنع اقنعتك، أقنعة الزمن الغلالية، قبل أن ينزل المطر ويذوب الطين الركامي عن النفس المسكونة بالملح، أصنع من الأنتظار غمداً يلجم خنجر الماء، وليال للصيف وللشتاء، وليال أخرى تدلف مداخلها الطحلبية العالقة في الريح، تجتاز أعتابها الغارقة في الضوء المثلثي للابواب نصف المفتوحة ونصف المغلقة، تعبر الحجرات المنسية، تنساب كالوهج المؤلم لحياتك المتشققة عبر حدقتك البلورية، القابعة تحت الجفن المسهد، تنسكب كالماء المر المنسكب من أحشاء-فخارة مكسورة، أو ربما كالإنسياب الشبحي للاوابد، على حواف البيد في الساعة الشفقية الصامتة، قبل أن تذرو رياح الشمس غبارها البني فوق عظامك اللامعة بيوت... بيوت. أيها الإنسان، كيف تجرؤ أن ترغب ببيت سواي.

أنا وأنت في المرآة التي علقها الزمن ـ الموت على بوابة الجحيم، إن كانت لك رغبة واحدة لماّ تحترق بعد، فاقفز خارجاً قبل أن تتلاشى في اللهب، لم اعد أراك، لم اعد أسمعك، فالدفق الهائل للطاقة بدأ يذيب الحواف، أنها تنحني، إنها تنصهر، نحن نتلاشى.

أيتها الأرض، أيتها الأم الكاهنة، العاشقة أبداً، المعشوقة أبداً، أيتها الواحة المنسية، المتألقة بالندى العابقّ، يا ذات الليالي المحارية، والنهار الحارق، أقسمت عليك بالحلم السبيكي

المـائـع للنيازك العـالقة باللسان، بحلم الروح المشتعلة بالنشوة المفاجئة للطين المنتصر، وحلم المياه الحارة، المتدفقة عبر لذة الفنـاء، بين الجلد والضبـاب، أيتها الكوكبية المضرجة بالزبد، أقسمت عليك بالقـوافـل المحملة بالبـذار وزجاج القلب، بعين البحـر العشبية، بالحلم المكسـور وبالوجه المنسكب، أقسمت عليك بحنـانك السرخسي، النامي عبر ازدواجية الصمت، أيتها الملقاة في العتبة البوهيمية لساعات الكون الغابرة، هل ثمة من يقين.

عنـدمـا هنـاك، لم يكن وجـود، ولم يكن عدم، والفضـاء المتـرامي تحت القبـة لم يحتضن غير صمت الأشياء الغائر في عمقه، ولم يكن خلود، ولم يكن فناء، وليس من ازرق يتواتر تحت الوَهْج، والليل الداهم لم يكن مفصولاً عن بهجة الصباح، وغير ترداد أنفاسه في ذاته لم يكن للواحد هناك من أثر. ولم يكن سواه غير ظلام يراكمه طي البعد، وحيث الكل هاجع في قلبه المجلل بقشرته الجافة، تلتقط الحياة شعلتها من الدفىء الأزلي الذي لم يملكه قط أحد غيره.

أيتها الحبيبة، هل ثمة من نهاية.

ها أنت تمـوت كمـا أحببت، بعد أن أحرقت أيامك بلهيب الرغبة، ولو أنك لم ترغب، لما كنت ذقت عذاب الموت والولادة، ولبقيت حلماً لجينيا دافئاً ينسكب في أعماقي، وعدماً سرمدياً رائعاً يقبع في صميم وجودي المنفطر، لكنك استولدت ذاتك الفانية من تراب قيامتي، وها أنت تصل النهاية، تماماً حيث بدأت وما كانت

رحلتك سوى آهة مدحورة بقلب بئر سحيقة، أو رقصة ضوء عابرة بقلب عقيقة، انحلّت حين ارتطمت بذاتها عبر مدارها المغلق، أو بالأحـرى تناثر صامت لصخرة تنفجر يتساقط شذارها في الفراغ البعيد، والآن، تريد أن أبوح لك بالسر، السر الذي أفنيت حياتك في طلبه، ها أنذا أخبرك، أنا هو أنت، لن تدرك ذلك الآن، فما زال بيننا بعض الوقت.

ولكن من انا، ومن أنت..؟

أنت وقع أول الاحاسيس، وإيحاء الإلهام الأول...

أنت التـطابق البـدائيّ لشفتيّ المتـلامستين.. أنت الـروح الأزلية التي تضطرب في الصلصال الآدمي، أنت حلم ليلة حصاد يعيشـه رجـل وامـرأة، أنت النشـوة العـابـرة العـالقة في المنازل المهجـورة، أنت المجمـوعـة الكاملة للآثام الوردية المدونة في كتاب الخلق.

أنت غنيمة باردة لرؤى شاعر مبهم.

أنت اشمئزاز اللحظات الميتة...

أنت التشج...

أنت الكسل...

أنت الناطق باسم الفناء في هذا الكون العميق..

بل أنا في عالم لا يملكه أحد، انتظر فيه أن أنصهر.

وأنت، أيتها الأرض، ليس ثمة من شيء، غير رمالٍ قاسية في

ماضيكِ، رمل الخطوات الضائعة، ورمال الجفن المسهد، والعين الباكية، ثمة رمال قاسية حول فضائك الموغل بعيداً عن الحافة، أيتها الواحة المتألقة بالندى.

أنا هناك وهنا، حيث يطرق النور أبوابك الموصدة. ويختلج فوق الرسوبيات الرطبة لترابك المر، قبل أن يتكور مختنقاً بسديم اللؤلؤ، ايتها الليالي المحارية، كيف استطعت أن تتسللي عبر هذا الوهج، ليلة، ليلة، قبل أن أتهاوى جذوة عابقة على عتبة أمواهك السرابيّة.

حين التصقت بك التصاق الطريق بالقدم الهاربة من ظلالها السوداء الموحلة، أو الرياح بالاجنحة الناقهة ذات القوادم الجذامية، بعد أن أرهقها المدار في استردادها الأخير للفضاء، او بالاحرى كالكف الهدبية لملاك الموت وهو يحتضن الروح المفارقة لطينها الآسن في معراجها النهائي، كنت هناك.

أنا هناك، وهنا، أفرغ في أوصالك نصف نيراني، أما النصف الآخر فاحتفظ به بقوة لذكرياتي الخاصة.

ليس أقوى من الصمت، لا الفرح ولا البكاء، ولا ذبالة السراج السخامية، الصمت المتصلب تحت الجلد الصدفي للاصابع الدبقة العالقة في حنجور الصلوات السرية.

كان لا بد من الصلاة، كان لا بد من الجهد والرجاء عبر تلك الأيام المتلاحقة بضراوة، عبر تخوم الأوهام المتراقصة، وهذا الاختناق الفطري بالروح والخرائب.

أيتها الأرض الملقاة في العتبة البوهيمية لساعات الكون الغابرة، كان لا بد من الانتظار.

أنا هناك، وهنا، سادن الدمعة الختامية الرائعة، السمّال الزاجر، غريق السراب، أمر بالنصب ذي الحجارة اللزجة، انا، المرتحل أبداً في عباب الأمواج الهلالية، الضارب في الرمل، والحادي المطرق عند الحافة المشتعلة بلهيب عالي لفراشك النيروزي.

وأنت أيتها الأرض، تخبئين لنا في باطنك شيئاً نستطيع الوصول إليه، وحين نكشف عن ذلك الشيء الذي حسبناه رائعاً، نجده بلا أهمية، بلا هدف وبلا قيمة، فنتقبله دون أن نفرح أو أن نحزن. في كل مرة نستجديك فيها شيئاً دافئاً نحصل عليه، لكن للحظة، إذ سرعان ما تأخذينه منا أو يبرد في داخلنا. وتأبين إلا أن تظلي رحماً يقذف بنا بوجه الوجود الصارم.

اليوم أدرك خلاصي، وها أنذا أمضي، لا أحمل سوى ذاتي المتوهجة بأقنعة الموت المؤقتة. وكل الأقنعة المتعفنة، النار.. النار المعلقة في الأفق تقترب، تقترب من الروح الخاوية كبئر مهجورة جففتها الريح، أو كدلاء ممزقة، أو ربما كاتجاه شبحي لا يقلّ أحداً.

النار لن تجد ما تحرقه..

أيها الأبن الضال، هل ثمة في الكون من يقين لم تصنع منه وهماً، وهل ثمة من وهم لم تجعله يقيناً.

النهاية ـ السقوط

obeikandl.com

obeikandl.com

النهاية ـ السقوط

الرجل الجالس على حافة البئر الحجرية، يدلي بساقيه عبر فراغ الفوهة ويحدق بالصفحة المرآوية لسطح الماء الراكد.

إنه النور أخيراً...

دعنا نرحل...

أين...؟

في هذا الإتجاه

هذا الإتجاه...

هذا الإتجاه...

كيف هذا الإتجاه...

في اللحظة التي ستقفز فيها سوف تفهم

اقفز...

أتريد أن أفنى...

قلت لك اقفز... ألم تتقن بعد لعبة الوجود والفناء...

هاك أمتعتي...

هات

إنه النور مرة أخرى...

كم

مرة واحدة

obeikandl.com

هل
أجل
لم افهم
أقفز ثانية
حتى لو قفزت آلاف المرات
كيف
في لحظة واحدة
لحظة واحدة
أين الأمتعة. . . ؟
لقد سقطت في الهاوية. . .
هل قفزنا معاً. . . ؟
لا أدري
ربما
والأمتعة
ألا تذكر. . . لقد تلاشت
أين
هناك بعيداً
هل تراني
من منا الذي يرى الآخر. . .
هل تقدر أن تنطلق إلى الحافة. . .
ربما نلتقي هناك. . .
يا إلهي، إنها نوبة الصرع، أحس بها تثقل رأسي، أكاد

obeikandl.com

أهوي، أنا أنزلق.. فاشا... كان هذا لقب خديجة زوجة حامد أبو همشـــة... وهـو... كيف لم أدرك ذلـك حتى الآن... وأنـا إذن... أنا... أنا أهوي في البئر ال...

إلهي...

إلهي...

إن كان فيها ماء فسوف أغرق

وإن لم يكن بها ماء فسوف اتحطم

أمّا أن تكون بلا قعر...

.....

أيار ١٩٩٢م

obeikandl.com

obeikandl.com

الدكتور غسان العلي

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الرحيل ـ العودة	٩
الطريق ـ الحلم	١٩
البئر	٣١
الفعل ـ الوهم	٤٣
انغلاق الدائرة	٥٣
النهاية ـ السقوط	٦٣
الفهرس	٦٩

obeikandl.com

كتب المؤلف

١ ـ البئر الغربي ١٩٩٢

٢ ـ البيدر ..... تحت الطبع

٣ـ ملخص تاريخ الادب العالمي ..... تحت الطبع

obeikandl.com